حاجتنا إلى أهداف قومية

بقلم الدكتور ابراهيم مدكور

الأستاذ بكلية الآداب وعضو مجلس الشيوخ

ليس شيء أعون للسائر من أن يجد فى طريقه بعض المعالم التى ترشده ، والنصب والإشارات التى تعينه على تبين الغرض الذى يسعى إليه ، لا سيما إذا كان الطريق جديدا لا عهد له به ، أو كان ملتويا متعدد العطفات والمنعرجات. ولا نزاع فى أن طرق الإصلاح شائكة ومملوءة بالصعاب ، تتنوع فيها الميول وتتباين النزعات ، وكلما وضحنا معالمها وحددنا غاياتها كنا اقدر على اجتيازها وتخطى عقباتها .

ومن أخص خصائص مدنيتنا الحاضرة تشعب مناحيها وتعقد أطرافها ، حتى ليكاد المرء يضل بين جنباتها دون أن يشعر أين هو ولا إلى غاية هو مسوق . ولولا ما نتسلح به من منهج وطريقة ونظام وترتيب ما خطونا خطوة فى مضمار هذه الحضارة ، ولا وصلنا الى هدف أو غاية تذكر .

تلك ضرورة لازمة للفرد والجماعة معا ، وتفاوت الأفراد فى انتاجهم يرجع غالبا الى أن بعضهم رسم لنفسه خطة سار على مقتضاها وتابع السير فيها ؛ فى حين أن البعض الآخر تعارضت مقاصده وتشتتت جهوده ، فيخيل الينا أنه يعمل الليل والنهار دون أن تبدو لعمله ثمرة أو تظهر لجهوده نتيجة . ولا تختلف الجماعات عن الأفراد فى هذا الموقف أى اختلاف فلها أغراض لابد أن تحدد وأهداف لابد أن تعين ، بل ربما كانت أحوج الى رسم الخطة ووضع البرنامج ، لتعدد مطالبها وتباين الوسائل التى تعين على تحقيقها .

ومصر — بين الأمم والجماعات — فى مسيس الحاجة الى أهداف قومية تشخص اليها الأبصار ، وتطمح الأفئدة ، ويتغنى بها الأطفال ، ويقدسها الشيوخ ، ويجد فى ادراكها الكهول والشبان . نعم هى فى حاجة ماسة الى ذلك ، لأن نهوضها فتح أمامها سبلا جديدة يجب أن تحدد معالمها وترسم خريطتها واضحة كاملة لتكون نبراسا جليا للسائرين . ولا يكفى أن تحبس أغراض النهوض ومراميه سرا فامضا فى أدمغة القادة وارعماء ، وانما نريد بها أن تتحول الى عقيدة شعبية يؤمن بها الجميع ويسير على مقتضاها ، فتتجه الجهود على اختلافها نحو هدف واحد وغاية واحدة .

ومصر فوق هذا ، وقد سبقها الركب العالمى فى ميدان النهوض والتجديد ، تشعر بأن عليها أحمالا ثقيلة ربما ناءت بظهرها ، وعليها واجبات عدة لو لم تسلك بها مسلك الحزم والحكمة لعز عليها أداؤها . واذا ما تعددت المسئوليات والأعمال فأضمن طريق للقيام بها أن نسير فى إنجازها الواحد تلو الآخر بناء على منهج ثابت وخطة واضحة ، وعلى النظام والترتيب يتوقف اليوم نصف الانتاج الانسانى تقريبا سواء أكان ماديا أم روحيا .

وهناك ظرف آخر خاص بنا أيضا يدعونا الى تحديد أهدافنا القومية وتعيين أغراضنا الوطنية ، ألا وهو أن أمورنا لم توكل الينا الا منذ زمن قريب ، أما قبل ذلك فكان تصريفها بأيد غير أيدينا وعلى أسس غير تلك الأسس التي نضمن لها ، وواجبنا يقضي — وقد ألقيت المسئولية على عاتقنا — أن نبدأ أولا فنرسم الخطة لما نحن بصدده ، ثم نسير في التنفيذ . وقد يكون من دواعي الفشل وخيبة الأمل أحيانا أنا لم نعرف كيف نوائم بين مشروعاتنا ومقتضيات الظروف الحاضرة . ورب عمل كان يعد جليلا منذ ثلاثين أو أربعين سنة مضت فإذا به اليوم لا يرضي الشعور القومي ولا يسد حاجة الطموح الشعبي.

ولا أظنني في حاجة الى أن أشير الى أن الأهداف القومية وليدة الكيان الوطني وربيبة النهوض والاستقلال ، فإذا ما تاقت أمة الى الوجود الكامل والحياة الصحيحة رأت نفسها مضطرة الى رسم تلك الأهداف والجد في تحقيقها . ولقد كانت لنا أهداف قومية في التاريخ القديم والمتوسط يوم أن كان لنا مجد وعزة وطنية . ولا أحب أن أقف عند هذا الماضي البعيد ، وكفى بأن ألاحظ أنا بدأنا نرسم هذه الأهداف مرة أخرى بحروف من نور في أوائل القرن الماضي حين بدأنا نستنشق نسيم الاستقلال والحرية ، وخطونا في عهد المغفور له محمد علي ماشا خطوات لو تابعنا السير على مقتضاها لسبقنا كثيرا من الأمم اليوم . ولكن أبى الله إلا أن نتوقف في الطريق ، ثم جاء الاحتلال والحماية فصرفانا عن كل مطلب وطني أو اتجاه شعبي .

وما ثورتنا الأخيرة في سنة ١٩١٩ إلا إنكار لذلك كله ، أو رغبة صادقة في استعادة مجدنا القومي. بيد أن الهدف الخارجي قد غطى طوال عهد الثورة على كل الأهداف الداخلية وكان القادة والزعماء يعرضون قصدا عن التحدث في شؤون الإصلاح خشية أن تصرف الجماهير عن غرضها الأسمى من الاستقلال والحرية . ولم يتغير الموقف كثيرا بعد تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ الذي اعترف باستقلال مصر ووضع أساس النظام البرلماني ، ذلك لأن هذا التصريح لم يحقق كل الآمال الوطنية ولم يسو المشكلة الخارجية تسوية نهائية .

حقا إننا أخذنا منذ ذلك التاريخ ننظر في حاجاتنا المختلفة ونحاول سدها ، ونعالج أبواب الاصلاح المتعددة : في الصحة والتعليم ، والأخلاق والسياسة ، والاقتصاد والمال . فعقدنا لذلك المؤتمرات ، ونظمنا الهيئات والجماعات ، وساهمت الصحافة في الاعلان والدفاع عن الأفكار الاصلاحية بنصيب كبير . ويمكننا أن نستخلص من خطب العرش برامج إصلاح شاملة ، وقد أضافت إليها المناقشات البرلمانية الكثيرة جانبا عظيما من التفسير والتبيين . هذا إلى أن الحكومات المتعاقبة تضافرت على العناية بالمشاكل الاجتماعية والعمرانية ، وكونت لها لجانا عدة عنيت بدرسها ووضع تقارير مستفيضة فيها .

إلا أنا لم نحظ في هذا كله بالاستقرار الذي ننشده ، ولا بالسير المطرد في سبل الاصلاح الذي نصبو اليه . وبقيت المشكلة الخارجية شغلنا الشاغل ، وجرت علينا ما جرت من

انقلابات وأزمات الى أن عقدت المحالفة الأخيرة بيننا و بين الانجليز فى سنة ١٩٣٦، ويخيل إلىّ أن هـذه المحالفة يجب أن تعدّ حدا فاصلا فى تاريخ تطور فكرة الأهداف القومية . لأنا — وقد رضينا ولو مؤقتا أن نوطد علاقاتنا الخارجية على أساس ما — كان لا بد لنا أن نتفرغ للشؤون الداخلية ونعنى بها العناية كلها. ولعل هذا هوالذى دفع فريقا منا لأن يظهروا أسفهم على أن هذه المحالفة لم تعقد منذ زمن مضى، لتوفر على لأمة خمس عشرة سنة قضتها فى تخبط سياسى واجتماعى لم يحط بها الى الأمام كثيرا . ولعل هذا هو الذى جعلنا نسمع على أثر المحالفة أحاديث كثيرة عن الاصلاح وسياسة الحكم الصالح . ومهما يكن من أمر الاعتبارات الداخلية أو الخارجية التى قضت بتعمير الوزارات فى خمس السنوات الأخيرة فلا نزاع فى أن الرأى العام أحس بحاجته الى الاصلاح أكثر من ذى قبل . ثم جاءت الحرب فعارضت الكثير من مشروعاتنا ووقفت حجر عثرة فى طريق اصلاحاتنا .

تلك هى الأدوار التى مرت بها فكرة الأهداف القومية فى العشرين السنة الماضية، هذه هى الجهود التى بذلت فى سبيلها . ولكنا نستطيع أن نقول بلا تردد إنا لم نكون بعد كل هذا سياسة قومية ثابتة فى أية ناحية من نواحى نشاطنا الاقتصادى والاجتماعى ، ولم نرسم لأنفسنا أهدافا وطنية واضحة . فالإصلاح يسير على حسب الميل والهوى ، وهو شخصى أكثر منه قومى ، تتدخل فيه عوامل الدعاية وبعض المؤثرات الحزبية . هـذا إلى أنه وقتى يحيا بحياة شخص أو يقوم بقيام وزارة ، حتى إذا ما بعد الشخص عن الأعمال العامة أو سقطت الوزارة انتهى كل شىء وتوقف الإصلاح ، وكم من مشروع إصلاحى بدأ قويا جذابا ، ثم ما لبث أن تلاشى وانهار لأن صاحبه لم يتسع له الزمن لتحقيقه .

و يظهر فوق هـذا أن أسرفنا فى الخطط والمشروعات ، فلا تكاد توجد فكرة إصلاحية إلا لها نصيب فى " دوسياتنا " الرسمية أو تقارير لجاننا و مؤتمراتنا الحرة . وكأن كل شخص يأبى إلا أن يعزى اليه قسط من الاصلاح ، ولو مجرد التفكير فيه ، فيحور و يعدل ما سبق اليه ليقال إنه من عمله الخاص . ثم تعجلنا فى درس هذه الخطط أحيانا ، أو أبطأنا فى ذلك إبطاء مملا أحيانا أخرى ، ففوتنا على أنفسنا الغرض الذى نسعى اليه فى كلتا الحالين .

ومما يؤسف له أخيرا أن الأحزاب السياسية عرفت كيف ترسم لنفسها خطة أمام المشاكل الخارجية ، أما المسائل الداخلية فأعرضت عن تحديدها إعراضا يكاد يكون تاما . وهى لو فعلت لرسمت لنا دستورا إصلاحيا نسير على مقتضاه مهما تغيرت الظروف والحكومات ولولأزالت كثيرا من أسباب الخلاف التى تباعد بينها. وهى أقدر من غيرها على أن تلقى نظرة شاملة على الحياة المصرية عامة فتلم بأطرافها المختلفة ، وتقدر لكل داء دواءه الملائم ، ولا جدال فى أن النظرة الشاملة التى تحيط بكل مواطن الضعف أعون على العلاج من النظرة الجزئية العاجلة .

لا أحاول فى هـذه الكلمة القصيرة أن أحدد الأهداف القومية ، ولا أزعم أن الأمر يسير المنال إلى هـذه الدرجة . وكل ما أستطيع أن أقوله الآن ان هذه الأهداف يمكن أن تقسم الى طائفتين متميزتين : خارجية ، وداخلية . فترمى الأولى الى تحديد نطاقنا الدولى وبيان علاقتنا بجيراننا القريبين والبعيدين ، وخاصة الأقطار الشرقية التى ينبغى أن تقوم علاقاتنا المادية والأدبية معها على أسس واضحة وسياسة مطردة . وأما الثانية فالأهداف الداخلية فتلخص كل أبواب الاصلاح الذى ننشده ، من اجتماعى وأخلاقى ، سياسى واقتصادى ، علمى وأدبى ، مادى وروحى . وهذا ما يبين خطورة الموضوع الذى نحن بصدده .

ولئن فاتنا أن نحدد الأهداف القومية فى دقة ، فلا أقل من أن نشير الى الطريقة المثلى التى تعين على رسمها وتكوينها . وفى اعتقادى أنا أصبحنا نمقت كل المقت الارتجال فى المسائل العامة ، لأن جهود الأمة وأموالها وحياتها لا يصح أن تضيع فى تجارب لا يعرف مصيرها . وأصبحنا نؤمن أيضا بأن فردا ، مهما سمت مواهبه وامتازت عبقريته ، لا يستطيع أن يلم بأطراف المشاكل الاجتماعية والاقتصادية المتشعبة . فلا بد من تضافر جهود الفنيين والمختصين لرسم خطة الاصلاح الذى ننشده ، وحبذا لو استطعنا أن نضع برامج إصلاحية محدودة الزمن تتقدم بها السلطة التنفيذية ويقرها البرلمان ، وبذا نضمن لها السير المطرد والأثر الدائم . ولنا فى مشروع الخمس السنوات أو العشر السنوات الذى طبقته البلاد لأخرى أسوة حسنة ، وكم يسرنى أن نبدأ فى هذا بتجربة قصيرة المدى ، فاذا ما بدا أثرها شجعتنا على تجارب أخرى .

وعلى كل حال كفانا ما مضى من تغافل عن المستقبل ، وغض الطرف عنه أو تجاهله وخشيته أحيانا ، فإن الأمم التى تنشد الرقى ينبغى أن تعيش لمستقبلها أكثر مما تعيش لماضيها وحاضرها . ولم يكن مستقبلنا متجهما قط تجهمه فى الظروف الحاضرة ، واعتقادى أن فى تجهمه هذا ما يحملنا على أن نصوب النظر بعيدا ونعد العدة لكل شىء ، لا أن نبقى مكتوفى الأيدى خائرى القوى . واذا كنا فى حاجة إلى أهداف فى حال السلم فنحن أحوج اليها فى ظروفنا الدقيقة ، وجدير بنا أن نتهيأ لما ينتظرنا بعد هذه الحرب كيفما كان لونه .

فالسلم والحرب معا يدعواننا إلى تحديد أهدافنا القومية ، والحكمة والمصلحة تشددان علينا الدعوة فى ذلك . لأنا بهذا التحديد نسير على هدى ، فنسرع الخطى ونأمن الزلل ، ونختصر الزمن . والوقت فى جيلنا الحاضر — أكثر منه فى أى جيل آخر — ذهب أو هو أنفس من الذهب . وفى تحديد هذه الأهداف ما يعالج أيضا بعض مظاهر النقص فى النظام البرلمانى ، فلا نخشى الإمهال والتباطؤ ، ولا تعوقنا المناقشات الحادة والمعارضات الطويلة ، ومتى اتضح الغرض سهل الوصول اليه . وفى التحديد أخيرا ما يقرب مسافة الخلاف بيننا ويجمعنا على كلمة واحدة ، ومتى اجتمعت أمة على أمر فهى لا بد واصلة اليه ما

ابراهيم مدكور